

دنيا الأطفال
41
نحو الشمس
بقلم: أ. عبد الحميد عبد المقصود
بريشة: أ. عبد الشافى سيد
إشراف: أ. حمدى مصطفى

الطَّبْعُ هُوَ الفِطْرَةُ الَّتى فَطرَ اللَّهُ عَلَيها مَخْلُوقَاتِه ، وَالتَّطَبُّعُ هُوَ السُّلُوكُ الَّذِى تَكْتَسِبُه المَخْلُوقَاتُ وتَتَعَلَّمُه مِنْ وُجُودِهَا فِى الحَيَاةِ ..

فَالدُّودَةُ خَلَقَها اللَّهُ لِتَزْحَفَ عَلَى الأَرْضِ ، والعُصْفُورُ خَلَقَهُ لِيَطِيرَ فِى الفَضَاءِ ، وَالسَّمَكَةُ تَسْبَحُ فِى المَاءِ ، وَالإِنْسَانُ يَسِيرُ عَلى الأَرْضِ .. وَهكذا ..



وَلكِنْ هَلْ يَغْلِبُ الطَّبْعُ التَّطَبُّعَ أَم العَكْس ؟!

فِي سِيَاقِ هَذِهِ القِصَّةِ تَوْضِيحُ ذَلِكَ ..

ذَاتَ يَومٍ كَانَ رَجُلٌ يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ ، وكَانَ الجَوُّ مُمْطِرًا ، والعَوَاصِفُ تَهُبُّ بِقُوَّةٍ ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ الخُطَى عَائِدًا إِلى بَيْتِه ، فَرَأَى نِسْرًا صَغِيرًا يَرْقُدُ عَلَى الأَرْضِ ، وَقَدْ تَبَلَّلَ جِسْمه مِنَ المَطَرِ ، وَأَخَذَ يَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ ، وكُلَّما فَرَدَ جَنَاحَيهِ مُحَاوِلاً الطَّيرانَ سَقَطَ عَلَى الأَرْضِ ، فَحَزِنَ الرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ النَّسْرِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِه :





ـ لَوْ تَرَكْتُ هَذا النَّسْرَ الصَّغِيرَ هُنَا ، فَسَوْفَ يَمُوتُ مِنَ البَرْدِ ، وَإِذَا أَخَذْتُهُ مَعِي ، فَكَيْفَ أُرَبِّيهِ ؟!

وَكَانَ لِلرَّجُلِ حَظِيرَةُ دَوَاجِنَ مُلاصِقَةٌ لِبَيْتِهِ ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ :

ـ آخُذُ هَذا النَّسْرَ ، وَأَضَعُه مَعَ الدَّوَاجِنِ فِي الحَظِيرَةِ ، فَهُوَ نِسْرٌ صَغِيرٌ ، وَلَنْ يُؤْذِيَ دَوَاجِنِي . سَوْفَ يَتَعَلَّمُ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلَ الدَّوَاجِنِ ، وَيَحْيَى مِثْلَهَا فِي الحظِيرَةِ ، حَتَّى يَكْبُرُ وَيَشْتَدُّ ..



وَحَمَلَ الرَّجُلُ النَّسْرَ الصَّغِيرَ ، فَوَضَعَهُ مَعَ الدَّوَاجِنِ فِى المَزْرَعَةِ ..

وَبِمُرُورِ الأَيَّامِ وَالشُّهُورِ تَعَلَّمَ النَّسْرُ الصَّغِيرُ أَنْ يَلْتَقِطَ الحَبَّ بِمِنْقَارِه مِثْلُ الدَّوَاجِنِ ، وَتَعَلَّمَ أَيْضًا أَنْ يَنْبُشَ الأَرْضَ بِمَخْلَبَيهِ ، وَيَسْتَخْرِجَ الدُّودَ والحَشَرَاتِ مِنَ الأَرْضِ ، مِثْلُ الدَّوَاجِنِ ..

وَعَاشَ النَّسْرُ حَيَاةَ الدَّوَاجِنِ ، حَتَّى كَبِرَ ، لكِنَّه لم يُفَكِّرْ يَومًا فِى الطَّيَرانِ ، تَارِكًا الحَظِيرَةَ ..

وَقَدْ تَعَوَّدَ صَاحِبُ الحَظِيرَةِ ذَلِك مِنَ النَّسْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَدْهَشُ مِمَّا يَرَاه ..

وَذَاتَ يومٍ مَرَّ عَالِمٌ مُتَخَصِّصٌ فِي دِرَاسَةِ سُلُوكِ الحَيَوَانَاتِ والطُّيورِ على الحَظِيرةِ ، فَلَفَتَ نَظَرَه وُجودُ ذَلِكَ النَّسْرِ الكَبيرِ دَاخِلَ حَظِيرةِ الدَّوَاجِنِ ، ودُهِشَ عِنْدَما رَأَى النَّسْرَ يَقِفُ هَادِئًا مُسْتَسْلِمًا ، فَلاَ يُؤْذِي الدَّوَاجِنَ ، أَوْ يَنْقَضُّ عَلَيها ؛ فَيَفْتَرِسُها ويَطِيرُ بِها بَيْنَ مَخَالِبِه ، وزَادَت دَهْشَتُه وحَيرَتُه عِنْدَما رَأَى النَّسْرَ يَلْتَقِطُ الحَبَّ مِثْلُ الدَّوَاجِنِ ، ويَنْبُشُ الأَرْضَ بِمَخَالِبِه بَحْثًا عَنِ الدُّودِ والحَشَرَاتِ ..




وذَهَبَ العَالِمُ إلى صَاحِبِ المَزْرَعَةِ ، وَسَأَلَه قَائِلاً :
ـ هَلْ تُخْبِرُنى كَيفَ يَعِيشُ هَذا النَّسرُ مَعَ الدَّواجِنِ ،
وَيَحْيَى مِثْلَها ؟!
فَضَحِكَ الرَّجلُ ، وَقَالَ :
ـ إِنَّ هَذا النَّسْرَ لَه قِصَّةٌ غَرِيبَةٌ ..
فَقالَ لَهُ العَالِمُ :
ـ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَها ..

فَسَرَدَ عَلَيه الرَّجُلُ الحِكَايةَ مِنَ البِدَايةِ إلى النِّهايَةِ ..

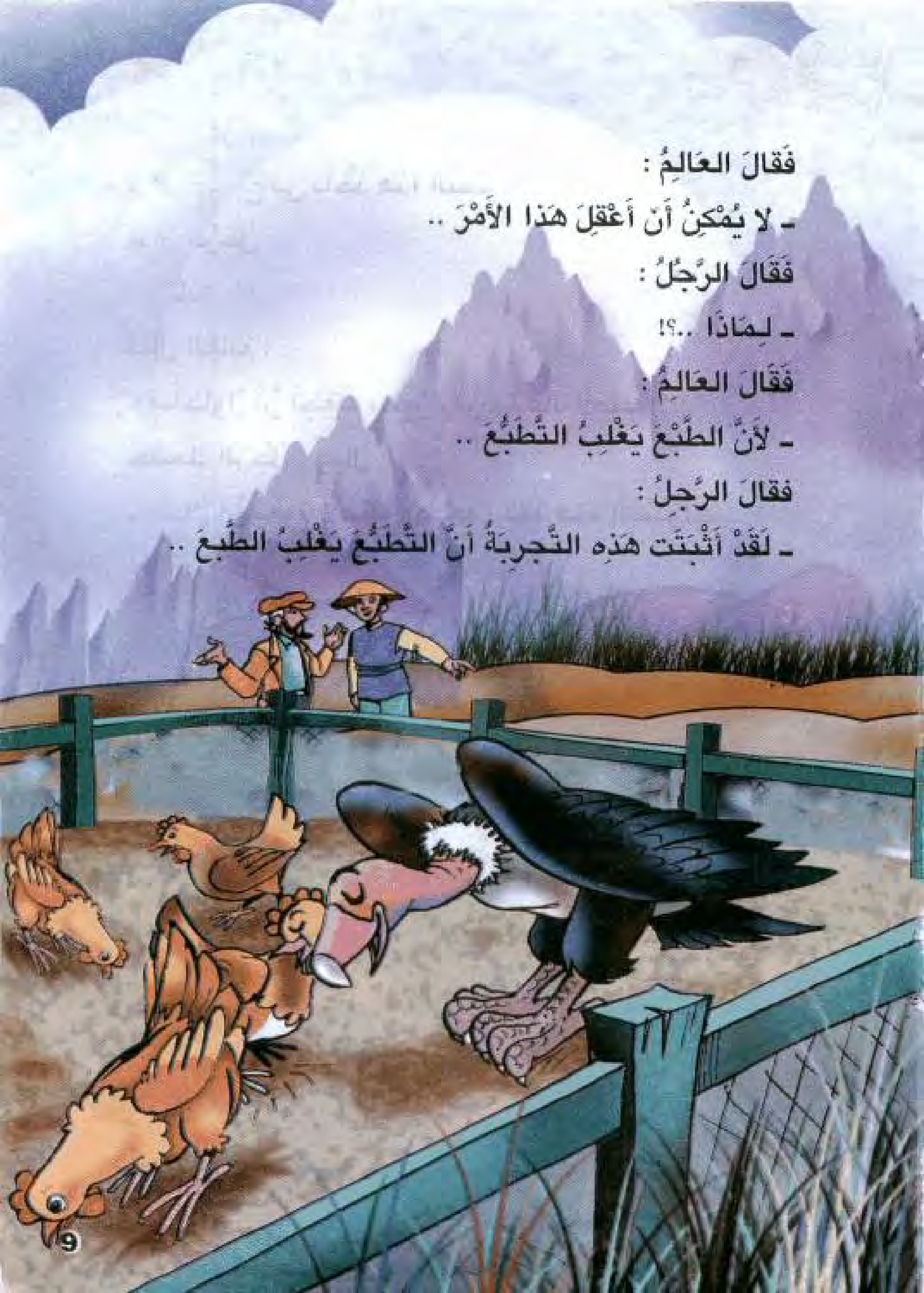
فَقَالَ العَالِمُ :

ـ حِكَايةٌ غَرِيبةٌ .. أَغْرَبُ مِنَ الخَيَالِ ..

فَقَالَ الرَّجُلُ :

ـ لَقَدْ علمتُ أنَّه بِمرورِ الوَقْتِ سَيكُونُ فِى مَقْدُورِ النَّسْرِ أن يَتَطَبَّعَ بِطَبْعِ الدَّوَاجِنِ ..





فَقَالَ العَالِمُ :

ـ لا يُمْكِنُ أَنْ أَعْقِلَ هَذا الأَمْرَ ..

فَقَالَ الرَّجُلُ :

ـ لِمَاذَا ..؟!

فَقَالَ العَالِمُ :

ـ لأَنَّ الطَّبْعَ يَغْلِبُ التَّطَبُّعَ ..

فقالَ الرَّجلُ :

ـ لَقَدْ أَثْبَتَت هَذِهِ التَّجرِبَةُ أَنَّ التَّطَبُّعَ يَغْلِبُ الطَّبعَ ..



فَقَالَ العَالِمُ :

ـ هَلْ تَسْمَحُ لِى بِأَخْذِ هَذَا النَّسْرَ ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ :

ـ لِمَاذا ..؟!

فَقَالَ العَالِمُ :

ـ سَأُحَاوِلُ أَنْ أَجْعَلَه يَطِيرُ ، فَرُبَّما عادَ لأَصْلِهِ ..

فَضَحِكَ الرَّجُلُ ، وَقَالَ :

ـ مُحَالٌ أَنْ يَعُودَ لأَصْلِهِ وَطَبْعِهِ ، بَعْدَ هَذه السَّنَوَاتِ ..



فَقَالَ العَالِمُ :

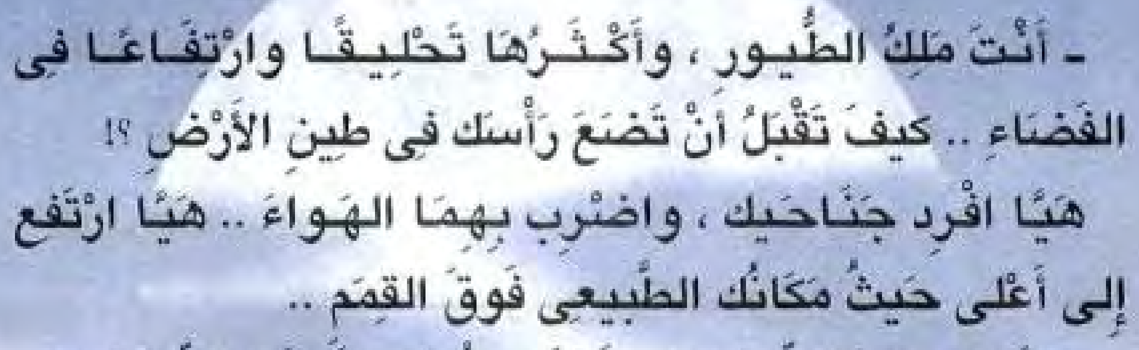
ـ لَنْ نَخْسَرَ شَيئًا ، إذَا جَرَّبْنَا ..

فَقَالَ الرَّجلُ :

ـ لا مَانِعَ أَنْ تَأْخُذَ النَّسْرَ ، وإنْ كُنتُ وَاثِقًا ، أنَّه قَدْ رَاقَتْ لَه هَذِهِ الحَيَاةُ ، واستَسْلَمَ لَهَا ..

وَجَرَى العَالِمُ إلى حَظِيرَةِ الدَّوَاجِنِ ، فَمَالَ عَلَى النَّسْرِ وحَمَلَه بَيْنَ يَدَيه ، وسَارَ بِه ، فَأَخَذَ النَّسْرُ يَرْتَعِشُ مِنَ الخَوفِ ..

وَصَلَ العَالِمُ بِالنَّسْرِ إلى هَضَبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ ، والرَّجلُ يَتْبَعُه ، فَقَالَ لِلنَّسْرِ :



- أَنْتَ مَلِكُ الطُّيورِ ، وأَكْثَرُها تَحْلِيقًا وارْتِفاعًا فِى الفَضَاءِ .. كيفَ تَقْبَلُ أَنْ تَضَعَ رَأْسَكَ فِى طِينِ الأَرْضِ ؟!

هَيَّا افْرِدِ جَنَاحَيك ، واضْرِبْ بِهِمَا الهَواءَ .. هَيَّا ارْتَفِعْ إِلى أَعْلى حَيثُ مَكَانُكَ الطَّبيعِى فَوقَ القِمَمِ ..

وَدَفَعَ العَالِمُ النِّسْرَ إِلى أَعْلَى بِقُوَّةٍ ، فَوَقَعَ النِّسْرُ على الأَرْضِ ، وارْتَطَمَ بِها بِقُوَّةٍ ..

فَضَحِكَ الرَّجُلُ ، وقَالَ للعَالِمِ :

- أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّه لَمْ يَعُدْ صَالِحًا للطَّيَرَانِ ؛ لأَنَّه لَمْ يَعُدْ نِسْرًا ، بَل صَارَ دَجَاجَةً ؟!

فَقَالَ العَالِمُ :

ـ سَأُحَاوِلُ مَرَّةً أُخْرَى ..

ولَمْ يَكَدِ العَالِمُ يُتِمُّ جُمْلَتَه ، حَتَّى رَأَى النَّسْرَ يَجْرِى نَحْوَ الحَظِيرةِ ، ويَقِفُ مَعَ الدَّواجِنِ مُسْتَسْلِمًا لِحَيَاتِه الَّتى تَعَوَّدَها مُنْذُ صِغَرِه ..

فَذَهبَ العَالِمُ إلَيه وَأَحْضَرَه مَرَّةً أُخْرَى ..

وفِى هَذِهِ المرَّةِ حَمَلَ العَالِمُ النَّسْرَ ، وسَارَ بِهِ بَعِيدًا ، حَتَّى وَجَدَ جَبَلاً مُرْتَفِعًا ، فَأَخَذَ يَتَسَلَّقُه صَاعِدًا بالنَّسْرِ وكُلَّمَا تَعِبَ جَلَس لِيَسْتَرِيحَ قَلِيلاً ، وَصَاحِبُ الحَظِيرةِ يَتْبَعُه ..



وَبَعْدَ جُهْدٍ شَاقٍّ وَصلَ العَالِمُ إلى قِمَّةِ الجبَلِ ، فقَالَ مُخَاطِبًا النَّسْرَ :

ـ إنَّ مَكَانَكَ الطَّبيعِى هُنَا ، فَوْقَ هذهِ القِمَّةِ الشَّامِخَةِ ، ولَيْسَ علَى الأَرْضِ مِثْلَ الدَّجَاجِ ..

ثُمَّ رَفَعَ النَّسْرُ عَالِيًا مُوَجِّهًا رَأْسَه نَحْوَ الشَّمْسِ الَّتى كَانتْ تَمِيلُ لِلْغُرُوبِ ، وقَالَ له :

ـ هَيَّا أَيُّها النَّسْرُ الشُّجَاعُ ، افرِدْ جَنَاحَيكَ ، وارْتَفِعْ فى السَّمَاءِ ، حَيثُ مكَانُكَ بَينَ النُّسورِ ، ولَيْس بَيْنَ الدَّجَاجِ ..

وبَدَلَ أَنْ يَرْتَفِعَ النَّسرُ فى السَّمَاءِ ـ كَمَا أَمَرَه العَالِمُ ـ انْهَارَ جَنَاحَاه ، وارْتَعَشَ مِنَ الخَوفِ ، ونَظَرَ إلى العَالِمِ ، بَيْنَما عَيناه مليئتَانِ بِالدُّمُوعِ .. ثُمَّ قَال :

ـ لا أَسْتَطِيعُ ..

فَتَأَثَّرَ العَالِمُ مِن مَنْظَرِ النَّسْرِ الكَسِيرِ ، وضَمَّه إِلى صَدْرِه ، مُشْفِقًا علَيه ..

ثُمَّ رَفَعَه عَالِيًا ، وقَالَ :

ـ لاَ تَقْبَلْ أَنْ تَجْعَلَ رَأْسَك فِي الطِّين ..

وَوَجَّه النَّسْرَ فِي اتِّجَاهِ الشَّمْسِ ، قَائِلاً :

ـ هَذِهِ فُرْصَتُك الأَخِيرَةُ ، فَلاَ تُضَيِّعْهَا .. هَيَّا حَلِّق نَحْوَ الشَّمْسِ ، الَّتِى طَالَمَا أَحْبَبْتَهَا ، وتَمَنَّيْتَ أَنْ تُحَلِّقَ فِي اتِّجَاهِهَا ..

ولِشِدَّةِ دَهْشَةِ العَالِمِ ، رَأَى النَّسْرَ يُحَرِّكُ جَنَاحَيه ضَارِبًا بِهِمَا الهَوَاءَ بِقُوَّةٍ ..





وَفِى لَوْحَةٍ مِنْ أَجْمَلِ اللَّوحاتِ ، وَمَنْظَرٍ مِن أَبْدَعِ المَنَاظِرِ ، طَارَ النَّسْرُ عَالِيًا فِى الفَضَاءِ ، وَمُتَّجِهًا بِكُلِّ قُوَّتِهِ نَحْوَ قُرْصِ الشَّمْسِ ، صَانِعًا صُورَةً مِنْ أَرْوَعِ صُوَرِ الطَّبِيعَةِ .. صُورَةِ الحَيَاةِ وَهِى تَعُودُ إلى أَصْلِها مُتَحَرِّرَةً مِنَ الطِّينِ ..

طَارَ النَّسْرُ وَسَطَ فَرْحَةِ العَالِمِ ، وَدَهْشَةِ صَاحِبِ الحَظِيرَةِ المَمْزُوجَةِ بِالإِعْجَابِ الشَّدِيدِ ..

وَهَذِهِ القِصَّةُ تُقَالُ لأُولَئِكَ الَّذِينَ لاَ يَسْتَسْلِمُونَ لِمَصَائِرِهِمْ ، أَوْ يَرْكَنُونَ إلى الطِّينِ ، طَالَمَا أَنَّ اللّه تَعَالَى قَدْ مَنَحَهُم المَوَاهِبَ الَّتى تُمَكِّنُهُمْ مِنَ التَّحْلِيقِ فِى الفَضَاءِ ، مَهْمَا كَانَتِ الصِّعَابِ والعَقَبَاتِ ..

تَمَّتْ

رقم الإيداع : ١٩٢٦ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي : ٥ـ ٠٢٩ ـ ٣٧٨ ـ ٩٧٧